جوائز ناجي نعمان الأدبيَّة الهادفة

prix littéraires ciblés
premios literarios apuntados
naji naaman *'s*
targeted literary prizes

جائزة الأديب متري نعمان للدِّفاع عن اللُّغة العربيَّة وتطويرها

prix mitri naaman
pour la défense et l'évolution de la langue arabe
premio mitri naaman
para la defensa y el avance de la lengua árabe
mitri naaman's prize
for the defense and the advance of arabic language
2011

ألأب سهيل قاشا

أنا والكتابة

مؤسَّسة ناجي نعمان للثقافة بالمجَّان

ألأب سهيل بطرس قاشا

مؤلِّفٌ وكاتبٌ عراقيّ، من مواليد باخديدا (الموصل – العراق) عامَ ١٩٤٢. دكتور في التَّاريخ الإسلاميّ، وقد درَّسَ المادَّةَ المذكورةَ في العراق قبل أن ينتقلَ إلى لبنانَ (١٩٩٢)، ويرتقيَ إلى الدَّرجة الكهنوتيَّة (١٩٩٤). يُدرِّسُ حاليًّا مادَّةَ الإسلاميَّات ومادَّةَ التُّراث العربيِّ المسيحيِّ في معهد القدِّيس بولُس للفلسفة واللاَّهوت (حريصا – لبنان)، إلى مادَّة التَّاريخ الإسلاميِّ والفلسفة الإسلاميَّة في جامعة الحضارة العربيَّة (بيروت). في رصيده نحو مئة مُصنَّفٍ وكتابٍ في ميادينَ مختلِفَة. كُرِّم في صالون ناجي نعمان الأدبيِّ الثَّقافيِّ ("لقاء الأربعاء"، تشرين الثَّاني ٢٠١٠)، كما حازَ عن مؤلَّفه الحاضر إحدى جوائز ناجي نعمان الأدبيَّة الهادِفَة لعام ٢٠١١ (جائزة الأديب متري نعمان للدِّفاع عن اللُّغة العربيَّة وتطويرها).

Suhayl Butrus Kacha

Auteur et écrivain irakien, né à Bakhdida (Mossoul - Irak) en 1942. Professeur de l'histoire de l'islam et de la philosophie islamique, il a à son actif une centaine d'œuvres publiées. Lauréat du Prix Mitri Naaman pour la défense et l'évolution de la langue arabe (2011) dans le cadre des Prix Littéraires Ciblés Naji Naaman.

Iraqi author and writer, born at Bakhdida (Mosul - Iraq) in 1942. Professor of Islamic history and philosophy, with almost one hundred published works. Laureate of Mitri Naaman's Prize for the defense and the advance of Arabic language (2011) within Naji Naaman's Targeted Literary Prizes.

ألأب سهيل قاشا، صاحِبُ المُصنَّفات والمؤلَّفات المَطبوعَة الَّتي بلغَتِ المئةَ مع كتابه الحاضِر، لم يَنَلْ جائزةَ الوالِد الحبيب لأنَّه دافعَ عن اللُّغة العربيَّة أو سعى لتَطويرها، بل لأنَّه، هو السُّريانيُّ المَولِد واللِّسان والتَّربية والثَّقافة، عرفَ كيف ينقلُ معرفتَه المَوسوعيَّةَ تلك بلُغة الضَّاد، كَيْما يُعَمِّمَها على العالَم العربيّ، من أقصاه إلى أقصاه.

هَنيئًا للأب قاشا كتابُه المئة، وهَنيئًا لأبناء الضَّاد وبَناتها ما سيقرأونه في هذا المؤلَّف المَجَّانيِّ الجديد، ولْيَعِشْ شِعارُنا القائِل: "الثَّقافةُ لا تُشرَى ولا تُباع".

ناجي نعمان

عشبة الراحة

أنا في قومٍ يسيرون على درب الجلجلة الَّتي اتَّخذتُها غذائي، في روحي وجسمي، بعد أن مشيتُ مع صاحبها من "الجسمانيَّة" إلى رأس الجلجلة، وكنتُ تحت قدمَيه، مع كلِّ خطوةٍ تنقشُ – على جبين الأرض – صورةَ المثل الأعلى الَّذي ما جهلَه إلاَّ الَّذين تسلَّموا صاحبَ هذه الخطوات، وحملوها رسلاً غير رسله، وقد انحرفوا بالدَّرب وبالتَّعاليم، فكانوا غير يسوع النَّاصريّ الَّذي رغبَ فيهم، يمشون على البحر، في يوم هياج البحر؛ يُقيمون المخلَّع والمَيْت، يفتحون عينَ الأعمى، يشفون الأبرص... والأمرُ سهلٌ حتَّى النِّهاية، عندما تكون فيهم "حبَّةُ الخَرْدَل" من الإيمان الحقّ. وكيف لا تكونُ المجانسةُ بين روح الرَّسول وجوهر يسوعَ النَّاصريِّ عندما تصفو الرُّوحُ وتنفصلُ النَّفسُ عن الأرض والمادَّة؟

أترابٌ يغلبُ الروح؟

أجسمٌ يُخضعُ روحًا ليفكِّكَ الأرضَ بين يدَيه؟

لتتكسرِ السَّفينة، وليبقَ المجذافُ الواعي في اليد الحذرة، البريئة. ليجنَّ الخضمّ، وليتجاوزْ جميع قيوده وحدوده، ولتبقَ نواةُ الرُّشد والحلم والوعي! فالرَّسولُ نواةٌ قلب يسوعَ النَّاصريّ، فكيف الرَّسولُ هذا يخمدُها؟ كيف يكونُ هذا، ولا تحرقُه، فيختفي؟

وديعة، وأيَّة وديعة؟

خيانة، وأيَّة خيانة؟

ذاك هو "فسادُ الملح"، ولكن، أين هو دور "ردِّ الفعل"؟ ولا بدَّ من أن يكونَ ذلك الدَّورُ الفاصل، أو لتسقطِ السَّماءُ على الأرض.

وإنَّ خيرَ ما اخترتُه هو أن أكونَ من القوم السَّائرين على درب الجلجلة... لا لأتفرَّجَ، بل لأشاركَ؛ ولا لأنظــرَ، بل لأتأمَّــلَ. وفي هذه

المشاركة والتَّأمُّل أخذتُ خبزي ومائي. ومن هنا كانت الغرابةُ بيني وبين البشر، في هذا العصر القائم، وتعزيتي الَّتي ولدَت مساءَ يوم الجلجلة، ووجدتُ مَن يشاركُني هذا الطَّريق، يمشي معي ويرافقني حافي القدمَين، لا عصا معه، ولا ذهبَ وفضَّة، ولا سلامَ فضفاضًا في فمه...

أنا لستُ أعظ، ولا أُرشد، وأنَّما يؤلمُني البُعدُ عن الجوهر، ومحاولةُ إخفاءَ وجه هذا الجوهر. والحقيقةُ والجوهرُ والحقُّ واحدٌ في نظر الينبوع الأمّ. ذلك الينبوع هو المرجعُ الَّذي ضبطَ كلَّ ميزان ومقياس، وإنَّ البُعدَ عن هذا الواقع هو ما يثيرُ كلَّ حربٍ وكلَّ فوضى في عالم البشر، عالمِ تضارب القوى، وصراعِ الميول.

قد كانت الثَّورةُ الأولى في السَّماء، بين الملائكة والملائكة، قبل أن تعرفَ الأرضُ المخلوقَ البشريّ. ومن تلك الثَّورة البِكر كانت جميع الشَّرائع والنَّواميس الَّتي جاءت قيودًا لحرِّيَّة الإنسان الَّذي هو واقعٌ ووضعٌ حرّ. إنَّها قيود، أجل، لكنَّها قدسيَّة، مُنقِذَة، تحمي الجوهر، على الرَّغم من خلق الإنسان مصادرَ وينابيعَ تصلحُ لكلِّ شيءٍ ما عدا الحقيقةِ الَّتي لا جديدَ فيها ولا عتيق، لأنَّها واحدةٌ وأساسٌ من الكمال، ولا يتَّفقُ جوهرٌ وتغيير.

هنا، عندنا الطَّوائفُ الكثيرةُ من الرُّسُل الَّذين يجهلون الرِّسالةَ وجوهرَها، وإنْ حملوها وشهدوا باسمها شهادات الزُّور. وسوف تكون لكَ منِّي صورُ هذه الطَّوائف المرعبَة، وقد أنقذَني "الرُّوح" منها.

عزيزي، يا قارئَ أفكاري العرجاء،
رسالةٌ فتحَتْ في وجهي الدَّربَ الطَّويل، وشقَّتْ أمام روحي أفقَ التَّأمُّل البعيد. حملَتني إلى الجلجلة، أنا الجريحَ على طريق "أريحا"، يرافقُني "هابيل" كلَّ وقــت، و"بطرس" كلَّ زمــن! ينظرُ إليَّ "قايين" و"هيرودُس"

و"هيروديا"، وقد قدَّموا "سالومي" الصَّبيَّة السَّاحرة، كبشًا وتضحيةً أثقلَها جنونُ العُمر، وهوَسُ الفتوَّة. وفي كلِّ مدينةٍ أكثرُ من "سالومي الضَّحيَّة"، وتحت كلِّ علمٍ أكثرُ من "هيرودُس" و"هيروديا"، وفي كلِّ هيكلٍ ومعبدٍ أكثرُ من "قيافا"، وفي كلِّ ساحةٍ وميدانٍ أكثرُ من "براباس".

لستُ وحدي، على درب الجبل الشَّاهد على الباطل والشَّرّ. دعوني مع يسوع النَّاصريّ، في بستان النِّزاع، لأكتبَ لكم جوابي، ويحلو لي ولكم أن يُسمِعَ الواحدُ منَّا الآخرَ قولَه "يا أنا"، والإثنان "أنا"، والجميعُ "أنا".

جلتُ يومي، بل أيَّامي، في دروب بيتَ لحم، والنَّاصرة، وأورَشليم. ومَن يجولُ ويطوفُ يجمعُ الكثيرَ من كلِّ شيء. وعند الغروب، قبل أن ألجأَ إلى بيتي – ولا تحسبَنَّ أنَّ لي بيتًا قصرًا يلمع، فهو غرفةٌ حقيرة، وفراشٌ حقير، حقير، ومصباحٌ قديم، وطاولةٌ تكادُ لا تتماسكُ قوائمَها، وأوراقٌ ودواةٌ وقلم – أقولُ، قبل أن ألجأَ إلى بيتي، وهو صومعتي ومأواي حتَّى لا أقولَ قلاَّيتي، إذا بشيءٍ خفيٍّ يحملُني إلى بستان "الجسمانيَّة" حيث وقفتُ، بعيدًا، أشاهدُ البشرَ والأصحابَ والرِّفاق، أشاهدُ "ابنَ البَشَر" راكعًا يصلِّي ليُعِدَّ صلبَه وصليبَه القريب.

وقفتُ بعيدًا، وذهبتُ إلى العميق، البعيد، وأنا أحسبُني ذلك "الخائن يهوذا". وكتبتُ هذه المقاطع، وقد كنتُ أفضِّلُ أن تبقى مخنوقةً مع آلامي المخنوقة، أُناجي بها مَن لا يدركُه البَشَر، لأنَّها من ذلك الَّذي أُناجي؛ ولأتركها، بعد إنهائها، عزاء المنازع الإلهي، وقد هربَت وتمرَّدَتِ التَّعزية. ولقد كنتم معي، أعزَّائي، في تلك المرحلة الدَّقيقة العجيبة. وكأنَّني سمعتُ يسوعَ النَّاصريَّ في ذلك البستان يقول:

"إنَّها ساعتي مع ذاتي، مع الأرض الشِّرِّيرة بإنسانها الشِّرِّير؛ هي الفترةُ الرَّهيبةُ الَّتي أجمعُ فيها بين الأرض والسَّماء؛ ولولا هذه السَّاعة

الغربية، لكفَرَتِ الأرضُ بالسَّماء، ولغابَتِ السَّماءُ عن الأرض، وكانت غرابةٌ أشدَّ قهرًا من الجَهل..."

"أنا الجوهر، أنا الينبوع، أنا الكرمَة..."

"أنا الطَّريقُ والحقُّ والحياة، مَن يتبعني لا يمشي في الظَّلام...".

دير الشُّرفة، في السَّابع من أيَّار ١٩٩٤.

تلمُّسٌ في اللاأبديّة

(١)

إنَّ خروجي من الزَّمان والمكان، وإمساكي أبديَّتي بيَدي ليس شردةَ خيالٍ أو ومضةَ حلم، بل شعورٌ صافٍ وحَتمٌ ماثلٌ ملءَ ذاتي منذ أن كانَ فيَّ وعيٌ لنفسي وتوقٌ للحقّ.

كلماتي إليكَ رسائلُ من الدَّاخل اختلجَتْ في أعماقي ألفَ مرَّةٍ قبل أن تحاولَ رؤيةَ النَّهار، وخرجَتْ إلى النُّور، فإذ بها تتلمَّسُ العودةَ إلى الدَّاخل هربًا من الفراغ الكبير الَّذي يُحدثُ ضجيجًا يصمُّ الآذان.

مَن ذا الذي يعيشُ فيَّ، يغيبُ عنِّي أحيانًا ويعودُ إليَّ حينًا آخر؟ مَن الَّذي يطرحُ عليَّ أسئلةً لا تنتهي؟ عنِّي، عن الطَّريق الَّذي أسلكُ، والهدفِ الَّذي رسمتُ لنفسي! وأيُّ صوتٍ هو ذاك الصَّوتُ الآخرُ وصرختُه الَّتي تجتاحُني: عِشْ وتمتَّعْ بالحياة، فلن تأخذَ معكَ شيئًا؟ أليسَ هذا هو الصَّوتُ السَّالِبُ لأنَّه يسلبُ منِّي الحياة! فطموحي لا يتحجَّمُ إلى هذا الحدّ، ولا يقفُ عند ملذَّات الحياة ويكتفي بها. في نفسي أن آخذَ معي كلَّ شيء، بل أن لا أبرحَ الحياةَ إلاَّ وقد أخذتُ نفسي معي.

إنِّي أعيشُ، هنا، حلمًا طويلاً؛ والموتُ هو بدايةُ اليقظة.

حياتي حُلمٌ لأنِّي لا أستطيعُ الإمساكَ بها وامتلاكَها. والأحلامُ رسالةٌ من عالمٍ ثانٍ تحملُ رموزًا معيَّنةً لا بدَّ لها من أن تتحقَّقَ في نهاية المطاف، وأن تصلَ بصاحبها إلى الحقيقة الكبرى...

وحدَها الحقيقةُ تريحُني. سأسعى نحو الحقيقة بالعقل والإيمان. عقلٌ مؤمنٌ وإيمانٌ عاقل.

إنَّ الإيمانَ الَّذي يعني التَّسليمَ بعد العجز ليس إيمانًا، ولا التَّسليمُ بعد وضوح الرُّؤية إيمان. يجبُ أن يرافقَ الإيمانَ صراعٌ طويلٌ بين الشَّكِّ واليقين. هذا الصِّراعُ هو الامتحانُ الَّذي على الإنسان أن يجتازَه ليكرَّمَ بعدَه أو يتعرَّضَ للسُّقوط.

الإيمانُ يتجسَّدُ بالممارسة؛ والممارسةُ هي أن تضعَ موضعَ التَّنفيذ قناعاتِكَ الإيمانيَّةَ، وذلك من خلال اتِّصالكَ بالعالم الخارجيّ؛ لأنَّ الإيمانَ من دون فعل الإيمان باطلٌ، كالمحبَّة من دون فعل المحبَّة.

مُدَّ للغريق يدَكَ، وحاولِ انتشالَه؛ تلك هي المحبَّة.

مارِسْ تعاليمَ الله تكُنْ مؤمنًا لئلاَّ يكونَ إيمانُكَ كمَن يقضي عمرَه يَلعَنُ الظَّلامَ من دون أن يُقْدمَ مرَّةً على إضاءة شمعةٍ ليبدِّدَه.

العقلُ والإيمانُ والممارسةُ جوهرٌ واحدٌ لا يمكنُ الفصلُ بينها، بل إنَّ الواحدَ يكملُ الآخر...

السُّؤالُ الَّذي يعيشُ فيَّ هو حالةٌ وجدانيّةٌ رافقَتني في مرحلة مبكرة، وجاءت تطرحُ في أعماقي مسألةَ الوجود ككلّ، وتضعُني وجهًا لوجهٍ أمام حقيقتي.

الأسئلةُ تتلاحقُ في داخلي: مَن أوجدَ الكون؟ لِمَ ولِمَنْ وُجدَ هذا الكون؟

وأجيبُ نفسي: أوجدَ الكونُ مَنْ مِن طبيعته الخَلق. ولقد أوجدَه للَّذين يعيشون معنى الخَلق، ويشعرون به...

أين حدودُ هذا الكون؟ حدودُه في المكان والزَّمان...

ماذا بعد النُّجوم؟ نجومٌ أخرى... وبعدَها؟ نجومٌ إلى ما لا نهاية...

قيلَ إنَّه، في نهاية المطاف، نصلُ الفراغَ الكبير، الفراغَ الكونيّ. إنَّ العقلَ لا يستطيعُ أن يلاحقَ الوجودَ إلى ما لا نهاية...

وسكنَت نفسي إلى نفسي تحاولُ أن تجدَ بين الأسئلة المتلاحقة، قناعاتٍ تحوِّلُها إلى إيمانٍ بالحقيقة الكبرى.

أشعرُ وأنا أخلدُ إلى ذاتي أنَّني محورُ الكون، وأنَّني الكائنُ الَّذي وجدَ كلَّ شيءٍ ليكتملَ وجودُه به.

ما حقيقةُ هذا الشُّعور الَّذي يجنحُ بي إلى حدِّ الاعتقاد أنَّني لو لم أكنْ موجودًا لما كان الوجودُ موجودًا؟

مَن أنا؟ ولمَ كنتُ؟ وهل أنتهي بعد أن كنتُ؟

هل يبدو تساؤلي عن نفسي ساذجًا لأنَّه غيرُ متَّصلٍ بالمادَّة؟

إنِّي أفتِّشُ عن حقيقتي، فلماذا أتهرَّبُ من واقعي...

لن أخلدَ إلى السَّكنية.

أأسكنُ إلى المدِّ وهو يجرفُني إلى البحر؟

لن أدعَ البحرَ يبتلعُني. لن أقفَ في الصَّفِّ الطَّويل أنتظرُ نهايتي لأنَّني لا أؤمنُ بالنِّهاية. سأقفُ في وجه التَّيَّار البارد لأنَّ جليدَه الَّذي يلفحُ وجهي، يزيدُني قناعةً أنَّه لا يحملُ الدِّفءَ الَّذي تطلبُه نفسي.

لن أقفَ في الصَّفِّ الطَّويل الَّذي يسيرُ بالنَّاس على غير هدًى...

فمتى كان الضّلالُ الشَّائعُ طريقَ حقّ!؟

بل مَن قال إنَّ الَّذي صلبَه الجميعُ لم يكنْ هو الهدى؟!

إنَّ هذا المدَّ المتلاحقَ من التَّضليل والتَّهريج هو نفسَه سببُ الضّياع في النُّفوس.

نُسألُ عن مصيرِنا بخجلٍ مخافةَ أن نُتَّهمَ بالتَّخلُّف.

نُسألَ عن الله وكأنَّنا نُسألُ عن المنكَر.

إنَّ الله يبتعدُ من حياتنا شيئًا فشيئًا، وصورتُه في داخلنا تبهتُ يومًا بعد يوم، وبتْنا نشعرُ، إنْ نحن بحثنا في وجود الله، كأنَّنا نطرقُ بابَ قَبوٍ مهجور.

نمطُ حياتنا يتسارعُ على نحوٍ مخيف.

نركضُ، نلهثُ خلفَ المادَّة لنمتلكَها، فتمتلكُنا. ونشعرُ أنَّنا ندورُ في حلقةٍ مُفرَغَة.

لِنَخرُجَنَّ إلى الضَّوء، لنتحرَّرَنَّ من هذه الدّوَّامة. لِنَعُدْ إلى المُنطَلَق، ونضَعْ جانبًا النَّظريَّاتِ البائسةَ الَّتي انحرفَت بنا عن طريق الحقّ. لِنُطلقِ الصَّرخةَ في وجه كلِّ مَن حولَنا، وكلِّ ما يدعونا للاستسلام وتسليم أنفسنا للفناء، ولنَعِدْ أنفسَنا بالخلود.

(٢)

الأسئلةُ الَّتي تلاحقُني اليومَ طَرَحت نفسَها عليَّ في ساعةٍ من الصَّفاء وكنتُ، بعدُ، طفلاً في الخامسة... كنتُ يومَها جالسًا قرب نافذة بيتنا، مع شقيقةٍ لي تزيدُني خمسَ سنوات، وحيدَين نتأمَّلُ السَّماءَ الزَّاحفةَ نحونا على في شكل ضبابٍ كثيف. ولفَّنا السُّكونُ للحظاتٍ طويلة، وتسرَّبَ إلينا شعورٌ غريبٌ ما لبثَ أن تملَّكَنا: إنَّه مزيجٌ من القلق والرَّهبة والخوف. عبَّرتُ عن شعوري بالانقِباض، وعبّرَتْ عنه بالبكاء.

ولم أسألْها عن سبب بكائها لأنَّني أدركتُ أنَّها، مثلي، خائفة. مِمَّ الخوفُ والأبوابُ مقفلةٌ من الدَّاخل، والمكانُ آمِن؟!

إنَّه الخوفُ من المجهول؛ خوفُ الإنسان وهو وجهًا لوجه أمامَ الحقيقة الكبرى، أمامَ نفسه، أمامَ الله.

مرَّتِ السَّنوات، ومرَّت حادثةٌ أخرى أتوقَّفُ عندها لأنَّها تركتْ سؤالاً جديدًا في نفسي: إنَّها مسألةُ لحظاتٍ يتوقَّفُ فيها الهاربُ من نفسه ليسألَ: ماذا بعدُ؟

كان الوقتُ ليلاً، وكنتُ قد أويتُ إلى فراشي حين تبادرَ إلى سَمْعي حديثُ ضيفَين تحوَّلَ نقاشًا حول وجود الله. كان رأيُ الأوَّلِ أنَّ الله غيرُ موجود، وبالتَّالي، لا وجودَ لِما يُسمَّى الحياةَ الأخرى، والإنسانُ يفنى لحظةَ يموت. وأمَّا الآخرُ فرأى أنَّ الله موجود، إلاَّ أنَّ الإنسانَ يفنى مع الموت، فلا وجودَ لِما يُسمَّى الرُّوح؛ وبالتَّالي، لا خلود بعد الموت.

الرَّهبةُ ذاتُها الَّتي شعرتُ بها طفلاً، تسلَّلَتْ إليَّ عند سماعي هذا النّقاش؛ إلاّ أنَّها، هذه المرَّة، خلقَت في داخلي الرَّفضَ المطلَق.

أَأَفنى بعدَ أن كنتُ؟

لِمَ كنتُ إذًا؟

أَيموتُ فيَّ هذا الشُّعورُ بالذَّات، وهذا التَّوقُ إلى الخلود؟

وأطلقتُ الرَّفضَ من داخلي، طفلاً عملاقًا يصرخُ في وجه الموج المتلاحق: رُدَّني إلى حقيقتي، رُدَّ ذاتي إليّ، رُدَّني إلى الحقِّ الَّذي انبثقتُ منه.

كلُّ شيءٍ في الطَّبيعة يخضعُ لمبدإِ الخلود، فالموجودُ خالدٌ بحُكم وجوده. وإن قلْنا إنَّ المادَّةَ أزليَّةٌ، فذاك يعني أنَّها، أيضًا، أبديَّةٌ، أي أنَّها لا تفنى.

إنَّها تتحوَّلُ من حالةٍ إلى أخرى، إلاَّ أنَّها تبقى، وإن خضعَت لقانون التَّفكُّك أو الانحلال، وأجزاؤها لا تضيعُ ولا تنعدم.

فالعِلمُ أقرَّ أنْ لا شيءَ في الطَّبيعة ينعدم: فكما أنَّه لا شيء من لا شيء! كذلك، لا شيءَ للأَّشيء.

إنَّ كلَّ موجودٍ في الكون اللاَّمتناهي يؤلِّفُ جزءًا لا ينتهي، وهو يتبعُ في حركته خطَّ دائرةٍ مغلقةٍ على نفسها لا تنتهي، ويتبعُ في العمق تجزيئًا مستمرًا؛ أي أنَّه يتجزَّأُ إلى ما لا نهاية، من دون أن يضمحلَّ ويتحرَّكَ إلى ما لا نهاية، من دون أن يسكن.

وأمَّا الوقتُ أو الزَّمنُ فهو وجودٌ غريبٌ وطارئٌ لأنَّه يخرجُ على مبدإِ الدَّائرة المغلقة، وهو مرتبطٌ بالإنسان الَّذي، من دون سواه من المخلوقات، يشعرُ بوطأته.

وهذا يدفعُنا إلى القول إنَّ الإنسانَ هو نفسُه وجودٌ طارئٌ في حركة الكون المستمرَّة، وهذا الوجودُ حُدِّدَ، هنا، في إطارٍ زمنيٍّ لغايةٍ محدودةٍ هي الوجودُ الآخَرُ غيرُ المُحَدَّد.

الحياةُ أقصرُ من أن تُشبعَ نَهَمَ الإنسان للحياة، وهي، بالتَّالي، معبَرٌ إلى وجودٍ آخر؛ وليست هدفًا في حدِّ ذاتها.

أنتَ لا تعيشُ أبدًا في الحاضر، وإنَّك لا تستطيعُ أن تُمسكَ بالوقت وتمتلكَه، فأنتَ تعيشُ في الماضي، تتذكَّر، أو في المستقبل، تحلُم. فخيالُكَ يشدُّ دائمًا إلى أبعدَ من حاضركَ.

إنَّكَ الوحيدُ بين المخلوقات الَّذي يتخطَّى واقعَه من منطلَق رَفض هذا الواقع.

لا وجودَ في الطَّبيعة لما لا معنى لوجوده، هذا يدفعُنا إلى القول إنَّ وراءَ هذا النّظام المتكامل خالقًا يُعطي الموجودات، بالإضافة إلى صفة الوجود، المعنى والمبرِّر لوجودهما.

إنَّ وجودَ شيءٍ لا دورَ له في نظام الكون المتكامل يوازي تمامًا نقصَ شيءٍ في هذا النّظام. ووجودُ الشَّيء وضدِّه في الطَّبيعة الخارجيَّة، كما في الطَّبيعة البشريَّة، هو الَّذي يولِّدُ عاملَ الحركة. والحركةُ عنصرٌ من عناصر الحياة.

وهذا يفسِّرُ وجودَ النُّور مقابل الظَّلام، والحقِّ مقابل الباطل. فقيمةُ الواحد هي عندما يُنسَبُ إلى الآخر، ومن ذلك أنَّ الواحدَ هو حَتْمٌ للآخر لأنَّه يُكمِّلُ وجودَه.

ولا وجـــودَ للحركة، وبالتَّالي، للصّراع، من دون تلك الإثنَينيَّـــة.

ولا خيارَ للإنسان إلاَّ إذا تكوَّنَ الصِّراعُ في داخله، فيُدعى عند ذاك للحسم، ولسلوك هذا السَّبيل أو ذاك...

الخلودُ هو الغايةُ الَّتي يسعى إليها الإنسان. والإنسانُ يختلفُ عن سائر الموجدات بأنَّه يعيشُ حالةَ الخلود، ويشعرُ بأنَّه لا يكتملُ إلاَّ بها. والفناءُ غريبٌ عنه لأنَّه يشعرُ، وهو يتخيَّلُه، بالرَّهبة والرَّفض المُطلَق.

فلو قلنا مع الفلسفة المادِّيَّة إنَّ الإنسانَ وليدُ تفاعلاتٍ في الطَّبيعة، لاستوقفَنا مبدأٌ في الطَّبيعة نفسها، وهو رفضُها كلَّ شيءٍ غريبٍ عنها، أي كلَّ شيءٍ لا دورَ له فيها، أو مبرِّرَ وجود.

فكيف نفسِّرُ، إذًا، وجودَ هذا الرَّفض المُطلَق داخلَ الإنسان لمبدإ الموت والفناء، وهذا التَّوقُ المُلِحُّ إلى الخلود!

حقيقةُ وجود الله فينا خاضعةٌ لصراعٍ داخليّ، وإثباتِ وجود الخالق على نحوٍ قاطع، وبالحجَّة العِلميَّة، يتعارضُ مع مفهوم وجودنا على الأرض.

فلنَتَصوَّرْ معًا، أنَّ الله، لكي يزيلَ الشَّكَّ من النُّفوس، ويسوقَ البشرَ إلى الإيمان، هبطَ فجأةً من عليائه على نحوٍ مَسرَحيّ، وأثبتَ للنَّاس بما لا يقبلُ الرَّدَّ أنَّه حقيقةٌ قائمةٌ لا مجالَ لرفضها، ودَعاهم بعدَها للخلاص: فكيف تريدُ من الَّذي شاهدَ أن لا يُسلِّم، بل أيّ معنى يصبحُ لإيمانه عند ذاك، وبالتَّالي، لوجوده ككلّ. فالخلاصُ والطُّوبى للَّذين لم يشاهدوا وآمنوا... وأمَّا الَّذين أقرُّوا بعدما شاهدوا، فليس لهم الفضلُ في ذلك، ولا لوجودهم ههنا مُبرِّر...

والحرِّيَّةُ المُعطاةُ للإنسان باختيار الطَّريق الَّذي يريدُ هي الَّتي ترتِّبُ له الحقَّ في بلوغ الحقيقة وامتلاكها... وإنَّ وجودَ طريقَين مختلفَين في الحيـــاة يفتـــرضُ وجودَ الحرِّيَّة، ووجودُ الحرِّيَّة في الاختيـــار يرتِّبُ

الحساب. ولأنَّ الحسابَ يفرضُ وجودَ المحاسب، نصلُ إلى حتميَّة وجود المحاسِب الَّذي يمتلكُ الحقَّ المُطلَقَ والقدرةَ المُطلقَةَ والعدل.

هذا الوجودُ هو الله... وإن نحنُ وصلنا إلى قبول وجود الله كحقيقةٍ حتميَّة، فذلك يعني حتميَّةَ وجود الذَّات الإنسانيِّة أوالنَّفس... وبالتَّالي، حتميَّةَ خلودها (أي النَّفس) لأنَّ الله كوجودٍ خالد، يكتملُ بالإنسان تمامًا كما يكتملُ وجودُ الإنسان بالله. ولأنَّه لا وجودَ لشيءٍ ليس لوجوده معنى، فوجودُ الخالق يصبحُ حقيقةً، ويكتملُ بوجود مخلوقات تعبُدُه.

فكما أنَّه لا مخلوقات من دون خالق، كذلك لا خالقَ من دون مخلوقات على صورته ومثاله، تستمرُّ معه...

الكمالُ لله هو في السِّيادة الدَّائمة والمُطلقَة على الكون. من هنا نقولُ إنَّ الإنسانَ كروحٍ مُنبثق من الله هو خالدٌ مع الله.

تقولُ الفلسفةُ المادِّيَّةُ إنّ المادَّةَ أزليَّة، وهي موجودةٌ بذاتها، دونما حاجةٍ إلى خالقٍ يوجدُها. وقد تولَّدتِ الحياةُ من المادَّة نتيجةَ تفاعلاتٍ معيَّنةٍ في الطَّبيعة. وكان الإنسانُ، بعد سلسلةٍ من مراحل التَّحوُّل والارتقاء.

لو سلَّمنا أنَّ المادَّةَ أزليَّةٌ، وأنَّ الحياةَ تولَّدت منها في وقتٍ محدَّد، لَوَجَدنا أنفسَنا أمام واقعٍ مستحيل... فلو قلنا إنَّ المادَّةَ أزليَّة، فإنَّ إمكانَ تولُّد الحياة من هذه المادَّة كانت منذ الأزل، وإنَّنا، بالتَّالي، نحن المنبثِقين من تلك المادَّةِ في اللّحظة الحاضرة، كان يُفترَض أن نكون موجودين منذ الأزل.

ولمَّا كان في الإمكانِ الوصولُ أبدًا إلى لحظةٍ نسمِّيها الحاضر، نشعرُ معها بوجودنا، وكان يُفترضُ أن نبقى مشدودين دائمًا إلى اللاَّأبديَّة وقابعين أبدًا في قلب الأزل. إلاَّ أنَّنا والحاضرَ الَّذي نعيش حقيقة، وهذا يُسقطُ مبدأ تولُّد الحياة الذَّاتيِّ من المادَّة الأزليَّة...

ونحن، أمام هذه الاستِحالة، نقول: إنَّ عمليَّةَ تدخُّلٍ قد حصلت من قوَّةٍ هي فوق الطَّبيعة ومبادئها، فكانَ الخَلق، وكانت دورةُ الزَّمان الَّذي نعيشُ في إطاره. والخلقُ يعني وجودًا من عَدَم، وهو من صفات الخالِق وأعماله، وإثباتٌ لوجوده.

(٣)

يجبُ التَّمييزُ بين الجسد والرُّوح في الجَدَل القائم حولَ حقيقة وجود الإنسان ومعناه. فالرُّوحُ هو الجوهرُ الَّذي يخرجُ على قوانين الطَّبيعة، والجسدُ المادَّةُ الَّتي تخضعُ لقوانين هذه الطَّبيعة، وتتبعُ دورتَها الَّتي تبدأُ بالارتقاء والصُّعود، وتنتهي بالانحدار فالانحلال.

يومَ نفخَ اللهُ من روحه في الطِّين، وقتَها فقط خلقَ الإنسان. وقبلَ ذلك كان الطِّين، والطِّينُ شكلٌ خاضعٌ للتَّطوُّر والتَّغيير بفِعل مرور الزَّمن. وأمَّا الرُّوحُ، أو الذَّاتُ الإنسانيّة، وهي هذا الشُّعورُ بالوجود والرَّهبة أمام الفناء، والتَّطلُّعُ إلى الخلود، فهي، منذ أن كانت، هي هي، لم تبدِّلْها الأيَّامُ، ولا المسافات. إنَّها في الشَّرق كما في الغرب، منذ آلاف السِّنين، كما اليوم.

تكفي العودةُ إلى حضارات الشُّعوب الغابرة لنثبتَ ذلك. لا شيءَ يكونُ، ثمَّ ينعدمْ. إنَّ هذا الشُّعورَ في داخلكَ بالوجود، تلك الأنا الَّتي تبقى فيكَ بعدَ أن يسقطَ منكَ كلُّ اتِّصالٍ بالعالَم المَحسوس، وهذا التَّوقُ في أعماقكَ الَّذي يشدُّكَ إلى الخلود، كلُّها تؤكِّدُ لكَ أنَّكَ مُدرِكٌ الخلود، وإنَّ عدمَ وصولكَ إلى السَّعادة ههنا، على الرَّغم من سعيكَ المستمرِّ لامتلاكها، يعني أنَّها موجودةٌ في حياةٍ ثانيةٍ وعالمٍ آخر.

عالمُكَ هو ما وراءَ المادَّة: فلا تدَعِ المادَّةَ تقفُ دون طموحكَ في أن تحقِّقَ ذاتَك. فلم يكُنْ طموحُكَ أبدًا أن ترى نفسكَ تذبلُ يومًا بعد يوم، وينتهي بكَ المطافُ إلى الانحلال، وتدعَ ستارًا من غبار الفناء يسدلُ عليكَ؛ ولا كانُ حلمُكَ أن تتحوَّلَ ترابًا ساكنًا في القبر إلى الأبد.

المادَّةُ وسيلةٌ وفصلٌ من فصول الصِّراع، صراعِ الرُّوحِ للخلود.

أَلَم يخالِجْكَ يومًا شعورٌ للتَّحرُّرِ من الجسد؟ هذا الشُّعورُ له دافعٌ، إنَّه الرُّوح، وله داعٍ، وهو الخلود.

إنّ عالمَ الرُّوح عالمٌ قائمٌ معنا، وفينا؛ نعيشُ معالمَه ونتلقَّى إشاراتِه؛ فنقفُ عندها حينًا، ونتخطَّاها أحيانًا. نراها إنْ تطلَّعنا إليها بعَين المؤمن، وتغيبُ عنَّا إن لعبَ الشَّكُّ فينا لعبةَ الشَّيطان المُضلِّلة.

تلك الرَّسائلُ من عالمِ الرُّوحِ هي ما يمكنُ اعتبارُه ظواهرَ غير طبيعيَّة، أي الَّتي لا تخضعُ لقوانينِ الطَّبيعةِ ونظامِها؛ وهي، بالتَّالي، غيرُ قابلةٍ للتَّفسير العلميِّ المعروف. مثالُ ذلك: المآثرُ والأعاجيبُ الَّتي تحصُلُ بوساطة قدِّيسي الله، أو ما يسمَّى بالحاسَّة السَّادسة، أي الشُّعورِ الغريبِ الَّذي يجتاحُ الأمَّ مثلاً في اللَّحظة الَّتي يحصُلُ لإبنها خطبٌ ما، وهو في المَقلَبِ الثَّاني من الأرض.

(٤)

أتينا على كرهٍ ونذهبُ رُغَّمًا ولعلَّنا ما بين ذلك نُــرغَمُ

قالَها أبو العلاء تشاؤمًا، ولكنِّي أقفُ عندَها لاستِخلاص ما يلي: أتَيْنا على كــرهٍ لأنَّنا نكــرَهُ السُّقوط. ونذهبُ رغَّمًا لأنَّنا نرفضُ الفنــاءَ

ونفضّلُ البقاءَ ولو في الشَّقاء. أفيكونُ بينَنا وبين العدم هذا الرَّفضُ، وبينَنا وبين الخلود هذا التَّوقُ، ويُقالُ إنَّنا خُلِقْنا للعَدَم؟

أنا باقٍ، وفي كلِّ نبضةٍ أو اختلاجَةٍ من نفسي الَّتي تفتِّشُ عن ذاتها، شعورٌ بالغربة.

أنا غريبٌ عن هذا العالم. أنا لستُ منه، فالنّظامُ في الطَّبيعة متكاملٌ، وأنا في قلبِ الطَّبيعةِ أشعرُ بأنَّني وجودٌ غريب، وكلُّ شيءٍ يبقى عليها على نحوٍ أو على آخَر، إلاَّ الإنسان، فإنَّه يرحل.

"كلُّ شيءٍ خيرٌ من بَني آدم"؛ لا بل إنَّ ابنَ آدمَ مختلِفٌ عن الأشياء الَّتي تُحيطُ به، فهي مادَّةٌ، وهو روح؛ هي جمادٌ، وهو شعور. والرُّوحُ هي الحالةُ الأسمى في الوجود لأنَّها شعورٌ خالدٌ بالوجود.

يومَ يموتُ أو يرحلُ اللهُ من قلوبنا، سيموتُ فينا الضَّميرُ والحبُّ والحنان. سنرى أنفسَنا في الجحيم يومَ نقفلُ البابَ في وجه الله، يومَ نعيدُ صلبَه ونضاعفُ الصُّخورَ على قبره، يومَ نحكمُ على أنفسِنا بالموت. كم سأخافُ يومَ يرحلُ القلقُ من نفوسنا، فهو الَّذي يدفعُ بنا نحو الحياة.

لا تخافوا من القلق، إنَّه تعبيرٌ آخرُ من تعابير الوجود. خوفُ الإنسان من الظُّلمة الأبديَّة هو الشّعاعُ الَّذي يشدُّه نحوَ النُّور الأسمى.

يسعى الإنسانُ خلفَ السَّعادة من دون أن يُدركَها، لأنَّه يفتِّشُ عنها في قلبِ المادَّة. السَّعادةُ لا ترتبطُ بالأرض أو المادَّة. لا تكنزوا لكم كنوزًا في الأرض لأنَّها لا توفِّرُ لكم السَّعادة. المادَّةُ قد توفِّرُ اللَّذَّة. إلاَّ أنَّ تلك اللَّذَّة خاضعةٌ لدورة الزَّمان والمكان، فنحن لا يمكنُنا أن نمتلكَ اللَّذَّةَ لأنَّه ليس في وسعنا أن نوقفَ الزَّمنَ في مكانٍ محدَّد.

قالَ آينشتَين: ما لا معنى له، أن يكونَ للعالم معنى. وهو، بقوله، لم يشأْ أن يتخطَّى الطَّبيعةَ وقوانينَها. وأمَّا نحن فننطلقُ من منطلق الإنسان الَّذي يفتِّشُ عن حقيقته من خلال المعادلات الطَّبيعيَّة، وتلك الَّتي

تتخطَّى الطَّبيعة، فنقول: لا وجودَ لِما هو ناقصُ الوجود؛ بل إنَّ كلَّ موجودٍ هو تامُّ الوجود. فإن لم يكتملْ وجودُه ههنا، فذلك يعني أنَّ وجودَه سيكتملُ في عالمٍ آخرَ وحياةٍ أخرى.

وكما أنَّه لا شيءَ يفنى بعد أن يكونَ موجودًا، فشعورُ الإنسان بوجوده وتوقُه إلى الخلود هو حقيقةٌ أزليَّة.

لم يعرفِ الإنسانُ نفسَه، فكيف يدَّعي أنَّه يعرفُ الآخرين؟ فاسْعَ، إنْ أردتَ أن تعرفَ حقيقةَ الإنسان إلى داخلكَ، لِتكتشفَ نفسَكَ، فتكتشف الآخرين من خلالكَ. إنَّ في داخلكَ كلَّ المعاني الإنسانيَّة، سَلْبَها وإيجابَها، الخيرَ والشَّرّ. فلا تبحَثْ عنها خارجَ ذاتِك.

الخيرُ نفهمُه عملاً إيجابيًا. فليس الامتناعُ عن الشَّرِّ فضيلة، ولا تجوزُ هنا المعادلةُ الَّتي تفترضُ أنَّ سلبَ السَّلب هو الإيجاب، لأنَّ في ذلك تشويهًا لمعنى الخير الَّذي هو فعلٌ وإقبالٌ، وليس تحفُّظًا وإحجامًا.

ثلاثةٌ يلقون عدوًّا لهم: الأوَّلُ يواجهُه بالسُّوء؛ والثَّاني يُحجمُ عن إيذائه ويتحاشاه لكي لا يرُدَّ له الأذى أذًى؟ وأمَّا الثَّالثُ فيردُّ له الأذى... تسامحًا ومحبَّةً ومساعدة.

إنَّ الَّذي قد ردَّ الشَّرَّ شرًّا قد فعلَ الشَّرّ؛ والَّذي ردَّ شرًّا خيرًا فقد فعلَ الخير. وأمَّا الَّذي أحجمَ فمثلُه مثلُ الَّذي أعطاه سيِّدُه وزنةً وحيدةً وغابَ عنه مدَّة، ثمّ عادَ يطالبُه بالجني، فأعادَ الوزنةَ إلى سيِّده كما استلمَها؛ فصدَّه السَّيِّدُ وعاقبَه.

أن تعطي الحياةَ فأنتَ تقدِّمُ المُبَرِّرَ بوجودكَ. فالعطاءُ هو الخير، وقمَّةُ العطاء والمحبّة؛ بها اختصرَ السَّيِّدُ كلَّ الفضائل. والمحبَّةُ تكونُ في كلِّ اتِّجاهٍ، أو لا تكون؛ كذلك النُّورُ الَّذي يبدِّدُ الظَّلامَ، والغيثُ الَّذي يروي الأرضَ العطشى. فالطَّبيعةُ هي على صورةِ الله ومِثالِه.

(٥)

بقيَ أن نقولَ إنَّ عملَ الخير أمرٌ في مُتناوَلِ يدِكَ، لأنَّه لا يُطلَبُ بحجمٍ معيَّن. يُطلبُ منكَ فقط أن تُقبِلَ عليه بقلبٍ صافٍ ونفسٍ مجرَّدة.

هذه الخواطرُ عفويَّة؛ وهي معاناةُ نفسٍ لا مجهودَ عقل. فهل وصلتَ معها إلى الحقيقة؟

الحقيقةُ المُطلَقَةُ لا يصلُ إليها أحدٌ من البشر.

الحقيقةُ المُطلَقَةُ هي الحقّ؛ إنَّها الله؛ وهي لا تُمتَلَكُ...

نحن نَملكُ فقط أن نسعى إليها...

دير الشُّرفة، في السَّادس والعِشرين من حزيران ١٩٩٤، ذكرى ميلاد المؤلِّف.

الكهنوتُ والكاهن

"إحفَظِ الوديعة... واظِبْ على القراءة، والوعظ، والتَّعليم"
(١ طيموثاوس ٤:١٣)

الكهنوتُ وساطةٌ بين السَّماء والأرض؛ لذلك هو سرٌّ لا يزاولُه غيرُ الكاهن من النَّاس. والسِّرُّ هذا هو وسيطٌ بين لاهوت السَّماء وناسوت الأرض، والوساطةُ هذه واجبةٌ بالذَّبيحة بين الله والإنسان، وقد أعطى المسيحُ هذه الوساطة الرُّسُلَ وحدَهم عندما قالَ لهم:

"إنِّي قد أعطيتُ كلَّ سلطانٍ في السَّماء والأرض، فاذهبوا وتلمِذوا كلَّ الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس، وعلِّموهم أن يحفظوا جميعَ ما أوصيتُكم به، وها أنا معكم كلَّ الأيَّام، إلى منتهى الدّهر" (متَّى ٢٨: ١٨–٢٠)، و*"مَن غفرتُم خطاياهم تُغفَرُ لهم، ومَن أمسكتُم خطاياهم تُمسَك لهم"* (يوحنَّا ٢٠: ٢٣).

الكهنوتُ كأسٌ من بلّور مملوءةٌ ماءً جدُّ صافية؛ عمودُ نارٍ هو؛ يقظةٌ من السَّماء في غيبوبة الأرض. الكهنوتُ خدمةٌ ورسالةٌ وعبادة، وليس حِرْفَةً أو مهنةً أو وظيفة، كما يتصوَّرُه البعض، أو كما فهمَه البعضُ الآخر، أو كما يحسبُه أهلُ الهَوى والمُشتهى.

هو خدمةٌ لأنَّ الكاهنَ خادم: *"ابن الإنسان جاءَ ليخدُم، لا لِيُخدَم"*، خادمُ الصِّغار والكبار، الفقراء والأغنياء، الجهلاء والعلماء، الرِّجال والنِّساء، المرضى والأصحَّاء، كما يقولُ مار بولس، رسولُ الأمم: *"صرتُ كلاًّ للكلّ، لأربحَ الكلّ..."*، وأيضًا: *"مَن يمرضُ منكم ولا أمرضُ أنا، مَن يتألَّمُ منكم ولا أتوجَّعُ أنا"*.

هو رسالةُ إبلاغ البُشرى، كلمةُ الخلاص لسائر الشُّعوب في العالم أجمع: *"ما أجملَ إقدامُ المبشِّرين بكلمة الرَّب"*. ومن ثَمَّ، إنّه يحوِّلُ الخبزَ والخمرَ إلى جسد المسيح ودمه كلَّ يوم، لا ليقضيَ على مبدإِ الخطيئة الَّذي زالَ مرَّةً واحدةً في التَّاريخ على خشبة الصَّليب، ولكن ليُذبحَ المسيحُ في كلِّ يوم، حتَّى يتناولَ جسدَه كلُّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكان؛ فتتبرَّر أعمالُه الخاصَّة.

الإنسانيّةُ بُرِّرَت مرَّةً واحدة؛ لكن، يترتَّبُ على كلِّ إنسانٍ أن يبرِّرَ أعمالَه الخاصَّةَ في كلِّ زمانٍ ومكان. وهذا لن يتمَّ إلاَّ إذا تكرَّرَتِ الذَّبيحةُ كلَّ يوم.

إذا كان المسيحُ قد ذُبحَ مرَّةً واحدةً من أجل الخطيئة، بمُوجَب المفهوم التَّاريخيّ، فمن اللاَّزم أن يُذبحَ كلَّ يومٍ من أجل خطايانا الشَّخصيَّة بمُوجَب المفهوم الكونيّ.

وأخيرًا، إنَّ الكهنوتَ عبادةٌ وتقوى، يتغلَّبُ على الرُّوح الدُّنيويَّة باتِّجاه المسيح الَّذي انتصرَ على العالم، وهذا يتحقَّقُ عن طريق روح الصَّلاة والتَّأمُّل بفضائل قلب يسوع الإلهيَّة، والابتعاد عن كلِّ ما في العالم من الدُّنيويَّات المادِّيَّة.

ومن هنا، أيُّها الأخوةُ المبارَكون: الكاهنُ وسيطٌ بالذَّبيحة بين الله والإنسان، نائبُ المسيح، ذو سلطةٍ على أنزاله وذبحه بين يدَيه كي يُعطيَه خبزَ حياةٍ للآخرين في كلِّ مرَّةٍ يقيمُ فيها الذَّبيحة. هو ذابحٌ من دون أن يكونَ مذبوحًا. هو مالكٌ من دون أن يكونَ مملوكًا. هو كاهنٌ من دون أن يكونَ مكهونًا...

هذا هو الكاهن، خالقُ خالقه – إن صحَّ التَّعبير – لأنَّه علَّةٌ فاعلةٌ لوجود المسيح حقًّا في البرشانة المقدَّسة. قالَ الله: *"كُنْ، فيكون"*؛ هكذا

الكاهن، يكفي أن يقولَ على الخبز: "*هذا هو جسدي*" ليصيرَ الخبزُ جسدَ المسيح. يا لها من أيدٍ مقدَّسة. إنَّ الَّذي خلقَ الكاهن، فكانَ الكاهنُ بوساطته، عادَ فوهبَ الكاهنَ أن يخلقَه فيكونَ بوساطة الكاهن.

هذا هو الكاهن، أعجوبةٌ مذهلة، لا يعلوها إلاَّ الله، إذ لا خلاصَ إلاَّ به، لأنَّه لا خلاصَ إلاَّ بالذَّبيحة؛ فكما أنَّ الكونَ كلَّه يُقيمُ الذَّبيحةَ صباحَ مساء، هكذا الكاهن، إنَّه الكونُ كلُّه مصغَّرًا ساعةَ يقفُ داخلَ الكنيسة ليُقيمَ الذَّبيحة.

هذا هو الكاهن، حاملُ أسرار، موزِّعُ أفراح، مُضيءُ أنوار، مُعطي الخلاص، واهبُ نِعَم. يسمو على السَّادات الزَّمنيِّين، ويفوقُ المراتبَ النَّعيميَّة لأنّه، من دون الذَّبيحة الَّتي يقدِّمُها في الكنيسة، لا قيمةَ ولا ثمنَ لجميع البشر؛ كلُّنا عدمٌ من دون الذّبيحة.

هذا هو الكاهن، بوَّابةُ المدينة الدَّهريَّة الَّتي هي السَّماء. ومفاتيحُ تلك البوَّابة. قهرمانُ البيت الملائكيّ، إذ الملائكةُ ذاتُها توقِّرُ الكاهن. ولا عجب، فإنَّ الملائكةَ بأجمعها لا تستطيعُ أن تحلَّ خطيئةً واحدة، ولا أن تقيمَ ذبيحةً واحدة، لذا قيلَ: إذا رأيتَ ملاكًا من السَّماء وكاهنًا من الأرض، فأركَعُ أمام الكاهن أوَّلاً. مَن سمعَ من الكاهن فقد سمعَ من المسيح، ومَن احتقرَ الكاهنَ فقد احتقرَ المسيح.

هذا هو الكاهن، رجلُ الكنيسة؛ رجلُ الشَّعب وآيتُه؛ أبٌ، ومعلِّمُ النُّفوس؛ خادمُ الإفخارستيَّا؛ رجلُ الإيمان والأبديَّة؛ رجلُ السَّفر والصَّلاة؛ رجلُ العزلة وعطيَّة الرَّبِّ للنَّاس؛ رجلٌ متجرِّدٌ عن نفسه؛ إنسانٌ مأكولٌ مصلوب؛ الرَّاعي الصَّالحُ الَّذي يعرفُ خرافَه ويمشي أمامَها ويذهبُ بها إلى المراعي الخصيبة ويغذِّيها ويحميها ويدافعُ عنها.

هذا هو الكاهن.

ومَن تأمّلَ شرفَ الكاهن قبّل الأرضَ الّتي تطأُها قدماه.

والحالةُ هذه، كَم عظيمةٌ درجةُ الكهنوت المقدَّسة! وكم عظيمٌ الكاهن! وكم ثقيلٌ عبءُ الكهنوت حتّى إنَّ مناكبَ الملائكة، كما يقولُ ملافنةُ الكنيسة، تعجزُ عن حمله! وكم يجبُ أن تكونَ للكاهن سيرةٌ قدّيسةٌ حتّى يليقَ به حملُ هذا الاسم، وهذه الرِّسالة.

***

أيُّها الأخوةُ الأحبَّاء،

عندما تمنحُ الكنيسةُ هذه الدَّرجةَ السَّاميةَ، تُطلقُ على المَمنوح اسمَ "أبٍ وراعٍ" إشارةً إلى أنَّه ينبغي أن يبذلَ حياتَه ويضحّيَ في سبيل خلاص أبنائه المستودَعين له ليرعاهم، ويحرسَهم من هجمات الذِّئاب الخاطفة الّتي لا تزالُ تعملُ ما في وسعها لافتراسهم: *"إحذروا من الأنبياء الكذَبة الّذين يأتونكم بلباس الحملان وهم من الباطن ذئاب خاطفة"* (متّى ٧:٥)، ولاسيَّما أدعياء العلم الفاسد: *"إن علِمَ أحدٌ غير ذلك ولم يُقبل إلى الكلام الصَّحيح، كلام ربّنا يسوع المسيح... فهو منتفخٌ لا يعرفُ شيئًا بل به هَوَس..."* (١ طيموثاوس ٦: ٣-٤).

ولذلك أقول: لمَّا دعيتُ إلى هذه الدَّرجة الشَّريفة المقدَّسة السَّامية، وقابلتُها مع ضُعفي، وجدتُ ذاتي غيرَ قادرٍ على القيام بأعبائها العالية، بيدَ أنِّي، امتِثالاً للطَّاعة المقدَّسة، والاتِّكال على العون الإلهيِّ والنِّعمة الخاصَّة الّتي تحلُّ على مَن يقتبلُ هذه الدَّرجة المباركة، وبالتَّالي، تلبيةً لنداء الدَّعوة الظَّاهريِّ والباطنيّ / *"أترُكْ كلَّ شيءٍ وتعال اتبَعني"*/ أخضعتُ كاهلي لحمل أثقال هذه المسؤوليَّة المنيفة.

ومع هذا كلِّه، أسألُكم، أيُّها الأخوة بالمسيح أينما كنتم، أن تتضرَّعوا إلى فادينا وربِّنا يسوعَ المسيح، رئيسِ الأحبار والكاهن

الأعظم، أن يمدَّني من علوِّ سمائه بنِعَمه الغزيرة لأتمكَّنَ من القيام بهذه المهمَّة الرَّفيعة في تدبير النُّفوس ورعايتها كالأبناء الأحبَّاء والأخوة الأعزَّاء.

***

أيُّها الأخوةُ الأعزَّاء،

منذ عام ١٩٦٠، والدَّعوةُ الكهنوتيَّةُ تعتلجُ في أعماقي بنار الإيمان والرَّجاء والمحبَّة؛ وتتفاعلُ معي في الفكر والقول والعمل؛ ساعيًا إلى اختِمار العجنة بحبَّة الخردل الَّتي أشار إليها الفادي في إنجيله المقدَّس كيما تختمر، ومن ثَمَّ تصيرَ شجرةً وتثمرَ ثمارًا تليقُ بالتَّوبة والخدمة.

وراحتِ الأعوامُ تتوالى، وأنا فيها وبها ومعها أدورُ وأدور، بين الأقدام والأحجام، بين الرُّضوخ لمشيئة الرَّبِّ والتَّرَيُّث والتَّعثُّر للإرادة البشريَّة؛ كما كانت تحيطُ بها آكامٌ ضبابيَّة، تعترضُني، تعمي بصيرتي لجهة التَّمييز بين الطُّرقات ومفترقاتها، وتحولُ بيني وبين ما أطلبُ في إطلاق الكلمة الفصل وتجريد القَول الحسم، إلاَّ من بعض الومضات من عملٍ بين الأخويَّات والنّدوات والدَّورات التَّعليميَّة والرِّياضات الرُّوحيَّة على هامش الرِّسالة العلمانيَّة.

إلاَّ أنَّ الأشدَّ والأدهى، والأعجبَ والأغربَ في الأدنى والأقصى، أنَّني، كلَّما كنتُ أقتربُ من الإكليروس، لتربطَني معهم أواصرُ الرِّسالة الواحدة، وتشدَّني وإيَّاهم على الطَّريق الواحد، كنتُ أجدُ أنَّني أبتعدُ عنهم أكثرَ وأكثر، وجدانًا وفكرًا، قولاً وعملاً، رسالةً وتعليمًا، فعلاً وتطبيقًا، إذ كنتُ أجدُ فيهم ما لم أكنْ أفهمُه، ولا أدركُه، إلى جانب ما كانوا يُظهرونه ويُضمرونه لشخصي من جفاءٍ وتعالٍ، من مقاطعةٍ ولامبالاة، حتَّى أضحَت بيننا هوَّةٌ عميقةٌ لا عبورَ من فوقها، ولا يوصلُ بيننا جسرٌ ولو من خيط العنكبوت. فتعالَـــتِ الأسوارُ وتعمَّقَـــتِ الخنادق، كلٌّ في واديه

يُناجي يسوعَه... وكثيرًا ما كنتُ أرجعُ إلى نفسي مستفسِرًا ومعاتبًا: لِمَ هذا الأمر؟ ما هي الأسباب؟ كان الجوابُ يأتي بعد التَّعب من البحث في زوايا ذهني، لستُ أدري. وعندها أقفُ في النِّهاية المسدودة لأعودَ القهقرى إلى نقطة البداية، وأنا لستُ أدري...

وكادَ اللَّهيبُ المضطرمُ بأحشائي، حبًّا بالمسيح، أن ينطفئ، وحبَّةُ الخردل أن تموت، والخميرةُ أن تفسُد، لولا عنايةُ الرَّبِّ القديرة الَّتي لا يُدركُها عقل، ولا يسبرُ غورَها فكر، ولا يصلُ إلى كنهِها طموحٌ أو أمل، ولا تقوى عليها إرادة، تشاءُ أن تنشلَني وتدعوَني من جديدٍ برباطٍ أقوى، وصورٍ أنصَع، وشعاعٍ ألمَع، وأفقٍ أسطَع: *"أنا الَّذي اخترتُكم ولستم أنتم الَّذين اخترتموني"*، كما يقولُ لاسمه السُّجودُ والمجد. لِشَخص سيادة راعي الأبرشيَّة النَّبيل المطران مار قورلُّس عمَّانوئيل يعودُ الفضلُ في رعاية دعوتي الكهنوتيَّة، وإنمائِها، وتشجيعِها، وإبرازِها إلى دنيا الوجود لتولدَ في عالم النُّور، إذ أحاطني بأبوَّته المباركة، وعنايته الكاملة، ورعايته اللاَّمحدودة، فأخذَ بيدي وانتشلَني وسطَ كلِّ الصُّعوبات، ونفخَ فيَّ روحَ العزم والصَّبر والأناة للتَّغلُّب على كلِّ ضعفٍ وتجربة.

وهكذا، عادَ لهيبُ الحبِّ أدفَأ، وحبَّةُ الخردل أنضَج، والخميرةُ أعذَب، لتُثمرَ بما يليقُ بالرَّبّ، وعادَ كلُّ شيء إلى حقيقته، وكأنَّ شيئًا لم يكُنْ من ترّهات الهِنات الهيِّنات.

ورحتُ أسبقُ الزَّمنَ، وأتحدَّى المِحن، وأواجهُ الرِّياحَ الهَوجاءَ بانتِهال ما استطيعُ انتهالَه من العلوم والفضائل في معهد مار أنطون البادواني، بدير مار يعقوب المقطّع في كرمسدّه، بلبنانَ الشَّمالي، على يد أساتذة ولا أقدَر، وتحت إشراف إدارةٍ ولا أروعَ ولا أنبل، مدَّة عامٍ مملوءٍ بالنِّعَم، ومُفعمٍ بالفضائل، زاخرٍ بالارتقاء والتَّسامي بالنُّفوس إلى قمم الرِّسالة المسيحيَّة المثاليَّة الشَّامخة شموخَ الأرز.

ثمَّ رحتُ أرتشف – ولمدَّة عامٍ ثانٍ – روحَ الصَّبر والأناة والتَّأمُّل في دير الشُّرفة، تحت ذيل حماية "سيِّدة النَّجاة"، الأمِّ القدِّيسةِ المباركَة، فوجدتُ في جوانبه وحناياه روحانيَّةَ مار أفرام الملفان السُّريانيّ، وصوفيَّةَ مار سمعان العموديّ، وقدراتِ مار يعقوب السّروجيّ، وإقدامَ مار أغناطيوس الأنطاكيّ، وشجاعةَ مار رابولا، أسقفِ الرّها الَّذي اخترتُه لي سميًّا.

وإنْ أنسَ، فلن أنسى سُلطانتي وأمِّي مريم العذراء الَّتي كنتُ قد وضعتُ دعوتي بين يدَيها المقدَّستَين، فأعزِّي النَّفسَ بها وبشفاعتها، وأبسطُ أمامها كلَّ ما يعودُ لي في العالم روحيًّا وماديًّا، طالبًا منها أن تحقِّقَه لي إن كانَ خيرًا، وتبعدَه عنِّي إن كانَ شرًّا؛ كيف لا، وهي أمُّ الإله، الكاهنِ الأعظم، ربِّنا يسوعَ المسيح. فاستسلمتُ لقدرتِها الَّتي كنتُ، وما زلتُ، واثقًا ومقتنعًا من أنَّها الأمُّ البتولُ الَّتي تفتحُ لي الطَّريقَ وتهيِّئُ الأسباب، لأنَّها هي البابُ والمفتاح، لا تردُّ سائليها، ولا تخيِّبُ قاصِديها، بل تأخذُ بيدهم وتوصلُهم إلى ميناء السَّلام، فكنتُ أصلِّي دومًا: *"يا سُلطانتي وأمِّي، إنِّي بكُلِّيتي لكِ، وما يخصُّني يخصُّكِ"*.

***

أيُّها المؤمنون المُباركون،

إنَّ ما دفعَني لتحرير هذه الرِّسالة هو وضعُ النِّقاط على الحروف، لِما أحاطَ دعوتي الكهنوتيَّة من التِباساتٍ ومُلابساتٍ قد تكونُ مثارَ تساؤلات وحوارات، أو حجرَ عثرة وشكّ. فأردتُ أن أُبَدِّدَ ضبابَ الشَّكِّ هذا بنور اليقين وحرارة الإيمان، وأُفَتِّتَ هذا الحجرَ بمطرقة المحبَّة. ولا أريدُ أن أزيدَ في الطِّين بِلَّة، ولا في الطَّبل رنَّة؛ وإنَّما أقول: سامحَ اللهُ كلَّ الَّذين عملوا دون وصولي إلى هدفي أو رغبوا في الحيلولة بيني وبين ارتقائي درجةَ المذبح المقدَّس، لسببٍ أو لغَير سبب، بمعرفةٍ أو

من دون معرفة، بإرادةٍ أو من دون إرادة، لا بل عافاهم الله وباركَهم لما قاموا به من جرحٍ وتشريح، من طعنٍ وتلميح، إذ ازدَدْتُ معرفةً بنفسي، وثقةً بدعوتي، وقناعةً بسيرتي، ويقيناً بطريقي، وفخرًا بسلوكي، ولولاهم لَما اكتشفتُ الطَّريقَ المستقيمَ من الملتوي، ولا السُّلوكَ الحقَّ من الباطل.

أجل، سامحَهم الله، وعَفا عمَّا سلَف، و*"اغفر لنا ذنوبَنا وخطايانا، كما نحن أيضًا نغفرُ لمَن خطئ وأساء إلينا"*. هكذا علَّمنا المعلِّمُ، له المجد.

***

وختامًا، فإنِّي أشكرُ أفضالَ غبطةِ أبينا البطريرك مار أغناطيوس أنطون الثَّاني حايك، الجالسِ سعيدًا، الَّذي شرَّفَني وترأَّسَ حفلةَ رسامتي الإنجيليَّة وسيامتي الكهنوتيَّة، وسيادةَ راعي أبرشيَّة الموصل، مار قورلُّس عمَّانوئيل بني الَّذي أسعدَني بوَضع يده المباركة في السِّيامتَين. أشكرُهما لرعياتِهما دعوتي منذ البداية وإلى النِّهاية، رعايةً سديدة، وعضدِهما لي لوصولي إلى هذا اليوم الأشرفِ والأفخر، الأبهى والأشهى، الأكرمِ والأقدسِ في حياتي الفانية، يومِ ارتقائي درجةَ الكهنوت المبارك، ووقوفي على مذبح الرَّبِّ المقدَّس.

كما أشكرُ والدتي وأخي وأخواتي الَّذين تحمَّلوا معي عبءَ هذه المسؤوليَّة، والصَّبرَ على ألم الاغتراب والافتراق في هذه الأيَّام العصيبة، وساندوني في السَّير على الدَّرب بأقدامٍ ثابتةٍ، وإرادةٍ صلبة، وروحٍ جريئة. منحَهم الرَّبُّ نِعَمَه الغزيرة.

ورحمَ اللهُ والدي الَّذي نفحَ فيَّ عزمَ الإيمان، وروحَ المحبَّة، وعمقَ الحكمة، وبذلَ الذَّاتِ، والتَّضحيةَ في سبيل حبِّ النَّاس، كلِّ النَّاس، وسقى لَحدَه شآبيبَ الرَّحمة، وأسكنَه فسيحَ جنَّاته السَّماويَّة، الرَّاحةَ الأبديَّةَ أعطِه يا ربّ، ونورَكَ الدَّائم أشرِقْ عليه. والسَّلامُ والبركةُ لجميعكم.

دير الشُّرفة، في السَّابع عشر من تمُّوز ١٩٩٤، لِمناسبة سيامة المؤلِّف الكهنوتيَّة.

ألمحتويات

عشبةُ الواحة..... ٥
تأمُّلٌ في الأبديَّة..... ١١
الكهنوتُ والكاهِن..... ٢٧

الثقافة بالمَجَّان
سلسلة كتب أدبيَّة مجَّانيَّة أسَّسَها *ناجي نعمان* عامَ ١٩٩١ وما زالَ يُشرفُ عليها
Ath-Thaqafa bil Majjan
Série littéraire gratuite établie et dirigée depuis 1991 par
Free of charge literary series established and directed since 1991 by
Serie literaria gratuita establecida y dirigida desde 1991 por
Naji Naaman

ANA wal-KITABA
L'ÉCRITURE et MOI
WRITING and I
أنا والكتابة

Mars 2011
© ***Tous droits réservés*** **– All rights reserved –** ***Todos los derechos reservados*** ألحقوقُ مَحفوظة
Maison Naaman pour la Culture & Naji Naaman's Foundation for Gratis Culture *FGC*